الفصل الخامس

برج بابـــل :

من بين المشكلات التى وقفت عقبة دون أية محاولة للبحث عن فجر تاريخ الجنس البشرى ، مسألة أصل اللغة وهى فى الوقت نفسه من أكثر المسائل اثارة وأكثرها صعوبة • على أن الكتاب الذين ضمنوا الفصول الاولى من سفر التكوين آراءهم الساذجة عن الأصول البشرية لم يذكروا شيئا عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد تصوروا أن الانسان قد حصل بهـــا على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان وهى القدرة على الكلام البين • بل انهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو ، أن الانسان قد منح تلك المقدرة التى لا تقدر بثمن ، منذ الأزل • نعم ، بل تصوروا أن هذه المقدرة كانت قاسما مشتركا بين الانسان والحيوان ، اذا كان لنا أن نستدل على ذلك من خلال حديث الانسان مع الحيوان فى جنة عدن • ومهما يكن الامر ، فان اختلاف اللغات التى تحدثت بها الاجناس الانسانية المختلفة ، قد جذبت بطبيعة الحـــال أنظار العبريين القدماء وفسروهـــا من خـــلال الحكاية التالية •

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة• ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من بابل ،وهناك حطوا رحالهم • وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن الصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين ، حيث انه كان يتعذر عليهم الحصول على الأحجار فى التربة الرخوة للمسطحات المستنقعية الشاسعة • على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، بل رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم • والسبب الذى دفعهم الى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامـــة

لهم من ناحية،وحتى لايتفرق الناس على سطح الأرض من ناحية أخرى. ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سماء المساء البراقة. أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب . وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهذا المعلم حتى يصل الى بيته. وقد كانت هذه الخطة سليمة ، لولا أنهم لم يكونوا قد وضعوا فى حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم . فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعملون به فى سرعة فائقة . فساءه هذا المنظر وقال لهم : « ها هم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم » ويبدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه ، وهو الأمر الذى لم يفكر فيه الناس . ولذلك فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها . وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبط الى الارض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » . وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم على وجه الأرض . ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج . وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة ، لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعا .

وقد زخرفت رواية عبرية متاخرة هذه الحكاية البسيطة بتفاصيل تصويرية غنية . من هذه التفاصيل نعلم أن فكرة تشييد برج بابل لم يكن يقصد بها سوى التمرد على الاله، وان لم يتفق المتمردون على هدف واحد . فبعضهم كان يرغب فى ارتقاء السماء واعلان الحرب على شخص الاله ، واحلال أصنامهم محله . والبعض الآخر قصر هدفه على فكرة أكثر تواضعا ، هى الحاق الضرر بالقبو السماوى ، وذلك بضربه بالرماح والسهام . وقد ظل الناس يشيدون البرج عدة سنين

حتى شمخ عاليا ؛ وأصبح على البناء أن يقضى عاما كاملا فى سبيل الوصول الى أعلى البناء وهو يحمل وعاء الملاط فوق ظهره • فاذا هوى البناء ساقطا وكسرت رقبته ؛ لم يبال أحد بذلك ، انما ينفجر الجميع فى البكاء على الطوب الذى لم يستخدم فى استكمال بناء البرج ، اذ يتحتم عليهم أن ينتظروا عاما آخر حتى يتمكنوا من اضافة قوالب أخرى الى البناء • وقد كانوا يعملون فى حماسة بالغة الى درجة أن المرأة لم تكن تكف عن اعداد الطوب ساعة ولادة طفلها • فاذا ولدت الطفل ربطته حول بطنها بملاءة واستأنفت عملها فى تشكيل قوالب الطوب وكأن شيئا لم يحدث • وهكذا استمر العمل ليل نهار دون توان • وهناك من أعلى البرج صوبوا سهامهم نحو السماء ، فكانت سهامهم ترتد الى الذين يقفون أسفل البرج وهى ملوثة الدماء • وعند ذاك صاحوا قائلين • « لقد قتلنا كل من فى السماء » • وهنا نفذ صبر الرب وتوجه الى الملائكة السبعين الذين يحيطون بعرشه ، وأمرهم أن يهبطوا الى الأرض ويبلبلوا ألسنة الناس • وفعلت الملائكة ما أمروا به ؛ ونجم عن ذلك سوء تفاهم دائم ومؤلم بين الناس ؛ فاذا طلب رجل ، على سبيل لمثال ، الملاط من رجل آخر ، قدم اليه هذا قالبا من الطوب بدلا من الملاط ، فيغضب الأول ويقذف بقالب الطوب فى وجهه فيقتله • وهكذا مات كثير من الخلق على هذا النحو • ومن لم يمت عاقبه الرب جزاء جريمة التمرد التى دبرت ضده • أما عن البرج الذى لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد ، فقد هوى جزء منه ، كما التهمت النار جزءا آخر ولم يظل واقفا منه سوى ثلثه • هذا ولم يفقد هذا المكان خاصيته العجيبة قط ، فكل من مر به نسى كل ما كان يعرفه •

ان مشهد هذه الاسطورة قد صور فى أرض بابل ؛ ذلك أن كلمة بابل هى الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه المدينة • أما كون الكلمة هى الصيغة الشائعة المستخلصة من العقل « بلل » (بلبل بالآرامية) بمعنى بلبل ، فهذا خطأ • أما المعنى الحقيقى للكلمة ، كما يتضح من الصيغة التى دون بها الاسم فى المخطوطات فهو فيما يبدو « بوابة

الرب » (باب ــ ايل أو باب ــ ايلو) • وربما كان الشارحون على حــق فى ارجاع دافع الحكاية الأصلى الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقول البدو الساميين السذج • فهؤلاء الذين كانوا قــد اعتــادوا الوحــدة وسكون الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشــوارع والأسواق ، وبهرتهم الألوان المتغيرة فى الزحام المصطخب ، كمــا دهشوا لضجيج الأصوات التى تنطلق من السنة غريبة ، وذعروا لرؤية المبانى الشاهقة وبصفة خاصة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق وهى تعلو طابقا فوق الآخر حتى كانت تبدو قممها البراقة المبنية من الطوب المصقول وكأنها تمس صفحة السماء الزرقاء • وليس بعيدا بعــد هذا أن يتصور ساكنو الخيــام أن هــؤلاء الذين تسلقوا هذا البرج الهائل عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون فى النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ؛ أنهم كانوا قد اقتربوا من الآلهــه بحق •

ولا تزال الآثار الترابية لمعبدين هائلين من هذه المعابد ترى حتى اليوم فى بابل • ومن المحتمل أن أسطورة برج بابل تتصل باحدى هذه المعابد أو بالآخر • ولا يزال أحد هذين المعبدين يبرز بين حطــام بابل نفسها ويحمل اسم بابل • أما المعبد الآخر فيقع حطامه عند النهر قرب « بورسيبا » على بعد ثمانية أو تسعة أميال جهة الجنوب الغربى ويعرف باسم « بيرز نمرود » • وقد كان الاسم القديم لهذا المعبد الذى كان يقع فى مدينة بابل ، هو « أى ــ ساجيل » (١)،وكان مخصصا لعبادة الاله « مردوك » • أما الاسم القديم للمعبد الذل كان يقع قــرب « بورسيبا » فهو « اى ــ زيدا » وكان مخصصا لعبادة الاله « نبو »• ولم يتفق الباحثون حول أى من المعبدين كان فى الأصل هو برج بابل ، فالحكاية المحلية واليهودية تربط بين البرج الأسطورى وحطام«بئر نمرود» الذى يقع عند « بورسيبا » • ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه فى هذا المكان ، أن الملك البابلى القديم الذى بدأ فى بناء بــرج

---

(١) كلمة أى فى اسمى المعبدين سومارية ومعناها بيت •

المعبد عند « بورسيبا » ، تركه ناقصا بدون قمة • وربما كان منظر هذا الصرح الهائل فى شكله غير المكتمل هو الدافع وراء نشأة اسطورة برج بابل ••

وعلى كل ، فقد كان فى بابل الكثير من أبراج المعابد ، وربما كانت الأسطورة ترتبط بأحد هذه الأبراج • فحطام مثل هذه المعابد ، على سبيل المثال ، لا يزال قائما فى « أورو » أو « أور الكلدانيين » التى هاجر منها ابراهيم ، فيما يقال ، الى أرض كنعان • ويعرف هذا المكان الآن باسم « المقير » أو « المجير » وهو يقع على الشاطىء الأيمن لنهر الفرات على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق بابل • ولا تزال مجموعة من الروابى المنخفضة ذات الشكل البيضاوى تشير الى مكان المدينة القديمة • وأرض هذه المدينة التى تلتف حول الروابى مسطحة للغاية بحيث ان مياه فيضان نهر الفرات كثيرا ما تغمرها فى الفترة ما بين شهر مارس الى شهر يونيه أو يوليه • وعند ذاك تبرز هذه الروابى كالجزيرة وسط مستنقع كبير ، ولا يمكن الوصول اليها الا بواسطة القوارب • وتمتد أشجار النخيل على طول شاطىء النهر دون انقطاع حتى تختفى فى الخليج الفارسى • وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا المكان ، تشمخ أطلال برج المعبد الى ما يقرب من سبعين قدما • ويتكون هذا الصرح من طابقين فى شكل متواز قائم الزوايا يتجه جانباه الكبيران جهة الشمال الشرقى والجنوب الغربى ويبلغ طول كل منهما حوالى مائتى قدم • أما الجانبان الأصغران فيبلغ طول كل منهما مائة وثلاثين قدما • وتتجه احدى زوايا الصرح جهة الشمال تقريبا ، كما هو الحال فى جميع الابنية المماثلة له • ويرتكز الطابق الأسفل الذى يبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين قدما على دعائم قوية • أما الطابق العلوى الذى يبتعد عن طرف الطابق الأسفل بحوالى ثلاثين الى سبعين قدما ، فيبلغ ارتفاعه أربعين قدما وتتوجه أنقاض من الطوب يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام على وجه التقريب • أما مرتقى هذا الصرح فقد كان من جهة الشمال الشرقى • ويشير نفق محفور فى

الرابية الى أن الصرح كله كان مبنيا من الداخل من الطوب المجفف فى الشمس ، تحيط به طبقة سميكة بعضها من الطوب المحروق ذى لـون أحمر فاتح ، وتفصل بين بعضه وبعض عيدان الغاب • ويبلغ سمك هذا كله عشرة أقدام حيث انه مغلف بحائط مرصع بالطوب المحروق فى الأفران • وقد عثر على سطوانات محفور عليها كتابات فى الزوايا الأربع من هذا المبنى ، وكل اسطوانة كانت موضوعة فى كوة هى عبارة عـن قالب منزوع من الطوب • وقد أثبتت الحفريات التى تمت بعد ذلك أن الكتابات التذكارية على هذه الاسطوانات ، فيما يبدو ، كان البناءون أو الذين يقومون بترميم المعابد البابلية والقصور يضعونها فى أركان الصروح الأربعة •

وقد علمنا من احدى هذه الكتابات أن المدينة اسمها « أور » ، وأن المعبد قد خصص لعبادة الاله « سين » اله القمر البابلى (١) • كما علمنا أن لملك أور ــ أوك أو «أورينجور» ، كما ينبغى ان ينطق اسمه الذى شيد برج المعبد ، قد تركه غير كامل ، وان هذا الصرح قد أكمله ابنه الملك « دونجى » من بعده • ويختلف تاريخ حكم الملك « أور ــ أوك » أو « أورينجور » ، فهو يتحدد بعام ٢٧٠٠ ق•م• أو بعام ٢٣٠٠ ق•م• وفى كلتا الحالتين فان بناء المعبد قد سبق التاريخ الذى يحدد عادة لميلاد ابراهيم ، ربما بمئات من السنين • فاذا كان ابراهيم قد هاجر حقا من « أور » الى « كنعان » ، كما تذكر ذلك الرواية العبرية، فان هذا البناء بعينة الذى ما تزال آثاره المقدسة قائمة بهـذا المكان حتى اليوم ، والذى كان مسيطرا بارتفاعه الشامخ على طبيعة البلاد المسطحة التى يخترقها نهر الفرات متجها الى البحر ــ كان يألفه ابراهيم منذ نعومة أظفاره ، وربما كان آخر ما وقـــع عليه بصره فى بلـده ؛ عندما رحل ليبحث عن أرض الميعاد ؛ فودعه وهـو ينظر وراءه الى وطنه ، والصرح يختفى على البعد وراء غابات النخيل •

---

(١) هو الاله الذى تحمل اسمه شبه جزيرة سيناء فى الاراضى المصرية •

ولم يذكر كاتبو سفر التكوين شيئا عن طبيعة اللغة المألوفة التى كان يتحدث بها الجنس البشرى كله قبل أن تتبلبل السنته ، تلك اللغة التى يفترض أن أبوينا الأولين قد تحدثا بها مع بعضهما بعضا ، ومع الحية ، ومع الرب فى جنة عدن • وقد افترض جدلا فى العصور المتأخرة أن اللغة العبرية كانت هى الأولى للجنس البشرى • ويبدو أن آباء الكنيسة لم يعارضوا هذا الرأى • وفى العصر الحديث عندما كان علم اللغة ما يزال فى مهده نشيطا وان كان ناقصا ، بذلت الجهود لارجاع كل أشكال اللغات الانسانية الى اللغة العبرية على اعتبار أنها أصل هذه اللغات • ولم يختلف الباحثون المسيحيون فى تبنى هذا الفرض الساذج ، عن علماء الأديان الاخرى ، الذين رأوا أن لغة كتبهم المقدسة لم تكن لغة آبائهم الأولين فحسب ، وانما كانت لغة الالهة أنفسهم • وقد كان أول من وخز هذا الرأى بطريقة مؤثرة هو «ليبنتز » ، الذى لاحظ « أنه كما أن هناك من الأسباب مايدعو لافتراض أن اللغة العبرية هى اللغة الاولى للجنس البشرى ، فان هناك من الأسباب كذلك ما يدفعنا الى تبنى وجهة نظر « جوروبيوس » الذى نشر مؤلفا فى « آنتويرب » عام ١٥٨٠ يثبت فيه أن اللغة الهولندية هى اللغة التى كان يتحدث بها آدم فى الجنة » وهناك كاتب آخر ادعى أن اللغة التى كان يتحدثبهاآدم فى الجنة هى اللغة الباسكية (١)•وتحدى آخرون الكتاب المقدس صراحة وادعو أن اللغات المختلفة كانت موجودة فى جنة عدن نفسها ، فآدم وحواء كانا يتحدثان اللغة الفارسية ، كما كانت الحية تتحدث اللغة العربية وأما جبرائيل الملك المفضل فقد تحدث مع أبوينا الأولين باللغة التركية • وهناك باحث شاذ آخر ، يرى جديا أن الرب قد تحدث الى آدم باللغة السويدية ، وان آدم أجاب خالقه باللغة الدانمركية وان الحية تحدثت مع حواء باللغة الفرنسية كل هذه النظريات منشؤها التعصب الوطنى والتنافر بين علماء اللغات •

---

(١) الباسكيون هم شعب مجهول الأصل يقطن مناطق البرانس الغربية .

وتحكى قبائل افريقية عديدة حكايات تتشابه مع أسطورة برج بابل فى وجوه محدده • فبعض أهالى زمبيزى الذين يسكنون فيما يبدو بجوار سلالات فيكتوريا ، يحكون حكاية تتصل بحكاية بناء برج بابل لكنها تنتهى بأن البنائين الجرآء انفلقت رءوسهم عندما سقطت بهم السقالات » وهذه الحكاية التى رواها دكتور « لفنجستون » بايجاز ، دونها مبشر سويسرى فى شكل أكثر اكتمالا • فقبيلة « أ ــ لوبى » التى تسكن عند أعالى نهر الزمبيزى، تحكى أن آلههم ؛ نيان بى « الذى يعد اله الشمس عندهم ، تعود فى سالف الزمن أن يسكن فى الأرض ؛ ثم صعد الى السماء بعد ذلك متسلقا خيوط العنكبوت • وهناك تحدث الى الناس من عليائه وقال لهم آمرا : « اعبدونى » • فتحدث الناس الى بعضهم بعضا وقالوا : « دعونا نقتل الاله نيانبى » • فذعر الاله لتهديدهم ولاذ هاربا الى مسكنه السماوى الذى كان قد هبط منه من قبل • وعند ذاك قال الناس : « لتنصب الآن أعمدة نصل عن طريقها الى السماء » فنصبوا أعمدة ربطوها بأعمدة أخرى تعلوها ثم أخذوا يتسلقونها • فما أن وصلوا الى ارتفاع كبير حتى سقطت بهم الأعمدة ؛ وهووا صرعى الى الارض ؛ وكانت هذه هى نهايتهم • وتحكى قبيلة « بامبالا » التى تسكن فىالكنغو ؛ أن « الوانجونجيين » رغبوا ذات مرة أن يروا القمر على حقيقته • فدكوا عمودا فى الأرض تسلقه رجل يحمل عمودا آخر فى يده ثبته فى نهاية العمود الأول ؛ ثم صعد رجل آخر يحمل عمودا ثالثا ثبته فى العمود الثانى ؛ وهكذا حتى وصل البرج الى ارتفاع كبير للغاية بحق ؛ اذ أن كل فرد من أفراد الشعب تسلق ومعه عمود ربطه بالعمود الأخير • ثم هوى هذا الصرح فجأة ؛ فهوى الأهالى صرعى وراحوا ضحية حب استطلاعهم الطائش • ومنذ ذلك الوقت لم يحاول أحد أن يتعرف على القمر • ويحكى أهالى « مكولوى » الذين يسكنون فى شرق أفريقيا حكاية شبيهة بالحكاية السالفة • فقد قال الناس ذات يوم لبعضهم بعضا ، وذلك وفقا لرواية هؤلاء الاهالى :

« دعونا نبنى بناء عاليا حتى نصل الى القمر » • وعنـد ذاك غرسوا شجرة ضخمة فى الأرض ، ووضعوا فوقها شجرة ثانية وثالثة وهكذا حتى هوت بهم الأشجار وقتل بعض الاهالى • فقال بعضهم الاخر: « لا تيأسوا من هذه المحاولة » • فرصوا الاشجار بعضها فوق بعض حتى هوت بهم وقتلوا هم كذلك • وعند ذاك كف الناس عن محاولة الصعود الى القمر • ويحكى الأشانطيون أن الاله القديم كان يعيش بين الناس ، ولكن امرأة عجوزا الحقت به الاهانة ، فصعد غاضبا الى مسكنه فى السماء • فحزن الناس لفراقه وقرروا أن يبحثوا عنـه • فأخـذوا يجمعون أرجل الخنازير ورصوا بعضها فوق بعض • فلمـا علا برجهم وكاد أن يصل الى السماء ، اكتشفوا فى فزع أن ما لديهم من أرجل الخنازير لا يكفى لاتمام البرج • فماذا يفعلون؟ عند ذاك هب رجل حكيم وهم فى هذا المأزق ،وقال لهم : « ان المسـألة فى غاية البساطة • خذوا الرجل السفلى وضعوها فوق العليا ، واستمروا فى هذا الفعل حتى نصل الى الاله » • فلما بدءوا ينفذون اقتراحـه ، وانتزعوا الرجل السفلى ،هوى البرج كما يمكن أن نتوقع • على أن بعض الأهالى يعزون سقوط البرج الى النمل الأبيض الذى أخذ يقرض الأرجل من أسفل • وعلى كان فان الاتصال بالسماء لم يتم ولم يتمكنـوا قط من الصعود الى الاله •

ويحكى فى المكسيك عن بناء هرم « كولولا » ، أضخم عمل للسكان الأصليين فى أمريكا بأسرها ، حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس عن برج بابل • ويقع هذا العمل الضخم الذى مازال المسافر فى العصر الحديث يقف أمامه متأملا اياه فى اعجـاب ، بالقرب من المدينة الحديثة الأنيقة « بوبيلا » ، فى الطريق من « فيراكروز » الى العاصمة •هذا الهرم يشبه فى شكله الاهرام المصرية ، ولكنه يضارعها فى أبعاده • ويبلغ ارتفاع سطحة المنحدر حوالى مائتى قدم ، أما قاعدته فيبلغ طولهـا ضعف قاعدة هرم خوفو • ويتخذ هذا الهرم شكل الـ « تويكاليس » المكسيكى ، أى أنه هرم اقطع • وتتجه جوانبه الاربع نحو الجهـات

الأصلية ، كما أنه يتكون من أربعة مصاطب • على ان خطوطه الأصلية انمحت بمرور الزمن وبتأثير الجو ، بينما أصبحت الشجيرات الكثيفة والأشجار تغطى سطحه ، بحيث يبدو وكأنه تل طبيعى أكثر منه رابية صنعتها يـد الانسان • وهذا الهرم مشيد من الطوب الأحمر الملصوق بالملاط الذى عشقت فيه قطع الأحجار الصغيرة وأجزاء من السكاكين والأسلحة المصنوعة من الزجاج البركانى الاسود • وبين قوالب الطين وضعت طبقات من الصلصال • وتطل قمة هذا الهرم المسطحة التى تبلغ مساحتها حوالى الفدان على منظر رائع ، هـو منظر الوادى الخصب المترامى الأطراف الذى تحيط به الجبال البركانية الضخمة التى تغطى منحدراتها المنخفضة الغابات الكثيفة • أما قمتها الرخامية فهى عارية ومجدبة ، وتغطى أعلى أجزائها الثلوج على مدار السنة •

وقد دون المؤرخ الأسبانى «دوران» الأسطورة التى تتعلق بهذا الصرح الضخم فكتب عام ١٥٧٩ يقول : « فى بداية خلق الحياة ، كانت الأرض مظلمة عابسة قبل أن تخلق الشمس والقمر ، كما كانت خلوا من كل المخلوقات ومسطحة ليس بها جبال أو تلال أو أشجار وتحيط بهـا المياه من كل جانب • فلما خلقت الشمس وبزغت من الشرق ، ظهر بعض الناس على سطح الأرض فى هيئة شياطين غلاظ وأصبحوا أصحاب الأرض • ثم دفعهم الفضول لأن يبصروا الشمس وهى تشرق وتغرب • فاتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا للبحث عنها • فقسموا أنفسهم الى مجموعتين ، المجموعة الأولى اتجهت الى الشرق والأخرى الى الغرب وظلوا سائرين حتى وقفوا عند شاطىء البحر • وعند ذاك قرروا أن يعودوا منحيث أتوا • فوصلوا الى المكان الذى يسمى « ازتاكشولين أنيمينيان»•ولما احتاروا فى طريقةتوصلهم الى الشمس التىاستمتعوا بدفئها وجمالها ، قرروا أن يشيدوا برجا عاليا تصل قمته الى السماء • وبينما كانوا يبحثون عن مواد للبناء عثروا على طين وقار سـميك استعانوا بهما على العمل فى تشييد البرج • فلما ارتفعوا به عاليا حتى كاد أن يصل الى عنان السماء ، غضب منهم الاله وقال لساكنى الجنة:

هل رأيتم كيف شيد سكان الأرض هذا البرج الشامخ وأصابهم الزهو فشاءوا أن يتسلقوه اذ بهرتهم الشمس بضوئها وجمالها ؟ دعونا الآن نفرقهم فى الأرض ، اذ لايصح أن يختلط بنا البشر بأجسامهم الدنيوية » • وفى لمح البصر كان سكان السماء منتشرين فى جهات الأرض الأربع ، وحطموا الصرح الذى شيده الناس بضربة كالصاعقة • عند ذاك فزع هؤلاء العمالقة وملأهم الرعب وتفرقوا فى كل جهات الأرض •

ولايتمثل تأثير حكاية الكتاب المقدس على هذه الحكاية فى تفرق مشيدى البرج فى انحاء العالم فحسب ، وانما يتمثل كذلك فى بناء البرج من الطين والقار • اذ بينما نجد أن برج بابل قد شيد ، كما قيل ،من هاتين المادتين ،نجد أن المكسيكيينلم يستخدموا قط مادةالقار فى مثل هذا الغرض ، هذا فضلا عنأن القار لا وجود له فىأى مكانقريب من « كولولا » •« على أنه يبدو أن حكاية بلبلة الألسنة قد انتشرت فى المكسيك بعد غزو الأوربيين لها بزمن قصير ، اذ أنه من المحتمل أنها قد ذاعت بتأثير المبشرين • ولايبدو أن الحكاية العبرية لها صلة بأسطورة برج « كولولا » • ولكنه من المحتمل على الأقل أن هناك حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس مدونة فى قائمة « جيميلى » للمهاجرين المكسيكيين ، تلك القائمة التى نسخت فى « هومبولت » • وتحكى هذه الحكاية أن طائرا كان يقف على شجرة أرسل عددا من اللغات الى حشد من الناس كانوا يقفون أسفل منه » • وربما كان « تايلور » على حق فى اتهام أسطورة « كولولا » بأنها « ليست أصيلة ، أو أنها على الأقل جزء من تلفيق متأخر » •

وربما انطبق مثل هذا الحكم على حكاية تروى عن قبيلة «كارن» فى « بورما » ، وهى قبيلة أبدت ميلا غريبا لاستعارة الحكاية المسيحية بعد أن كانت تخلع عليها طابعا محليا شفافا • وتجرى حكاية برج

بابل كما ترى عن «الجايكهوويين » ، وهم فرع من هذه القبيلة ، على النحـو التـــالى :

« يرجع « الجايكهوويون » سلسلة نسـبهم الى آدم • وعندما بنى برج بابل كان قد تناسل منهم ثلاثون جيلا ، وفى هذا الوقت انفصلوا عن « الكاريين الحمر » • وفى عصر « بان ــ ان ــ مان » ، استقر رأى هؤلاء على أن يشيدوا هيكلا متعدد الأدوار يصل الى عنان السماء • أمـا المكان الذى شيد فيه هذا الهيكل فهو ، فيما يرون ، كان يقع فى مكان ما فى بلاد « الكاريين الحور » • وقد كان الكاريون ، كمـــا يذكرون ، على صلة بهذا المكان حتى زمن حادث هذا البرج • ولمـــا أتموا بناء نصف هذا الهيكل ، هبط الاله من السماء وبلبل السنةالناس، بحيث لم يعـد بعضهم يفهم البعض الاخر • ومن ثم تفرق الناس ، واتجه « ثان ــ ماو رأى » جد قبيلة « جايكو » جهة الغرب ومعـــه ثمانية من الزعمـاء ، واستقر فى وادى « سيتانج » •

وقد عادت حـكاية برج بابل وبلبلة الألسن الى الظهور بين قبيلة « ميكير » احدى قبائل « التبت البورمانية » المتعددة التى سكنت فى أسام •فهم يقولون أن نسل « رام » كان قويا فى الزمن القديم • ولما لم يقتنع هؤلاء بسيادتهم على الأرض ، فكروا فى غزو السماء • ومن ثم فقد بدءوا فى تشييد برج يوصلهم الى السماء • وأخذ البرج يعلو تدريجيـا حتى خشـــيت الآلهة والشياطين أن يسيطر هؤلاء المردة على السماء كما سيطروا من قبل على الأرض الأربعة • فبلبلت الآلهة ألسنتهم وشتتهم فى أركان الأرض الأربعة • ومن ثم فقد تعددت لغات الجنس البشرى • ومرة أخرى نجد الحكاية القديمة بعينها تنتشر فى شـــكل خفى بعض الشىء بين « الأيســلنديين » و « الأ ميراليين » فهم يقولون : ان تعداد أسرة أو قبيلة « لوهى » كان يبلغ مائة وثلاثين نسمة ، وكان زعميهم يسمى « مويكيو » • ثم قال هذا الزعيم لقومه « دعونا نشـيد بيتا يطـاول السماء » • فبدأوا فى تشـــيد هـذا البيت • وما كادوا يقتربون من السماء حتى أتاهم رجل من « كالى »

يدعى « بواوى » منعهم من الاستمرار فى بناء البيت وقال « لمويكيو » : « من الذى أمرك أن تشيد بيتا عاليا على هـذا النحو ؟ » • فأجـاب مويكيو اننى زعيم اللوهيين • ولقد قلت لقومى : « دعونا نشيد بيتا يطاول السـماء » • ولو كنت طوع ارادتى ، لشـيدت بيوتنـا جميعا عالية تطاول السماء • أما الآن ، فقد نفذت رغبة قومى ، وأصبحت البيوت منخفضة » • وبعد أن انتهى من كلامه نثر الماء على قومه ، فتبلبلت السنتهم ، ولم يعد الواحد منهم يفهم الآخر ، وتفرقوا فى بقاع الأرض ، وبذلك أصبح لكل بلد لغته • وقد لايساورنا أدنى شك فى أن هذه الحكاية ليست سوى صدى لتعاليم المبشرين المسيحيين •

على أن هناك غير قليل من الشعوب حاولت أن تفسر اختلاف اللغات عن طريق حكايات لا تمت لحكاية برج بابل بسبب أو بأية حكاية أخرى تشبهها فى تكوينها المعمارى • فقد حكى الاغريق أن النـاس عاشوا أحقابا طويلة فى سلام • ولم يكونوا آنذاك يعيشون فى مدن أو يحكم بينهم قانون سوى حكم الاله زيوس ، ولا يتحدثون سوى لغة واحدة • ولكن الاله «هرمس» ، جعل لغة الناس مختلفة فقسم الجنس البشرى الى شعوب • فلما دب النزاع بين الناس فى بادىء الأمر ، استاء « زيوس » لخلافاتهم ، فاعتزل العرش وتركه للبطل اليونانى « قورونيوس » ، أول ملك حكم من بين النـاس • وتحكى قبيلـة « واسانيا » التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية ، أن القبائل كلها لم تكن تتحدث فى الزمن القديم سوى لغة واحدة • ثم حدثت مجاعة قاسية أصابت الناس بالجنون ، فتفرقوا فى كل بقاع الأرض وهـم يثرثرون بألفاظ غريبة ، فنشأت اثر ذلك اللغات المتعددة • وتفسر قبيلة « كاششاناجاس » ، وهى قبيلة تسكن التلال فى أسام ، اختلاف اللغات على نحو آخر • فقد كان الناس جميعا ، وفقا لروايتهم ، جنسا واحدا قدر لهم بعد ذلك أن ينقسـموا الى أمم متعددة • وقد كان للملك الذى كان يحكم بين الناس ابنة تدعى « ستيولى » ، وكانت تتميز بسرعة معجزة فى السير • وكانت«ستيولى»تحب التجولفى الأحراش طوال النهار بعيدا

عن البيت ، الأمر الذى كان يسبب قلقا لأبويها ، اذ كانا يخشيان أن تفترسها الوحوش • وذات يوم فكر أبوها فى حيلة ليبقيها فى البيت ، فأرسل فى طلب سلة مملوءة ببذر الكتان ، ثم نثر الحب على الأرض ، وأمر ابنته أن تجمع البذور بذرة بذرة وتضعها فى السلة وتعدها فى الوقت نفسه • ثم تراجع عنهـا وهو يحسب أن هذا العمل سيشغلها اليوم كله ولكن الفتاة فرغت من العمل عند الغروب • وعدت الحبوب ووضعتها فى السلة ، ثم أسرعت على التو الى الأحراش فلما عاد والداها وتفقداها ، لم يعثرا لها على اثر • فأخذا يبحثان عنها أياما عديدة حتى اعترض طريقهما تنين مهول كان يأكل فى نهم فى ظل الأشجار • فاجتمع النـاس حول التنين وطعنوه برماحهم وسيوفهم • وما أن فعلوا هذا حتى تغيرت أشكالهم ووجدوا أنفسهم يتحدثون لغـات مختلفة • ثم انفصلت كل جماعة تتحدث لغة واحدة عن الجماعات الأخرى ، وأصبحت هـذه الجماعات المختلفة اجدادا للأمم المختلفة التى تعيش الآن على وجه الأرض • على أن الحكاية لم تذكر شيئا بعد هذا عن الأميرة ومصيرها وعما اذا كانت قد عادت لوالديها الحزينين أم أن التنين قد ابتلعها •

ويفسر « الكوكيون » فى « مانيبور » وهم عنصر آخر يسكن تلال « أسام » ، اختلاف اللغات فى قبائلهم من خلال الرواية التالية : كان ثلاثة أحفاد لزعيم بعينه يلعبون معا ذات مرة داخل البيت ، عندما طلب منهم جدهم أن يصطادوا له فأرا • وبينما كانوا منصرفين الى اصطياد الفار أصيبوا بلعثمة فى ألسنتهم ، وأصبح كل منهم يتحدث لغـة لا يفهمها الآخر ، ولذا فقد هرب منهم الفـأر • أما أكبر هؤلاء الأخوة فقد تحدث اللغة « اللاميانجية » ، وأما الأوسـط فقد تحدث اللغـة « التادوية » • وأما الثالث فقد قيل أنه تحدث اللغة « الوفيية » ولكن البعض يعتقد أنه قد تحدث بلسان « انكونتربای » التى تسكن فى جنوب استراليا أصل اللغـات الى امرأة عجوز حادة المزاج ، توفيت منـذ زمن بعيد • وقد كان اسم هـذه المرأة « وروری » ، وكانت تسكن جهة الشرق ، وتسير فى العادة وهى تحمل عصا فى يدها تفرق بـه النار التى ينام الناس من حولها • فلما ماتت ابتهج الناس لتخلصهم منها ، الى درجة أنهم أرسلوا الرسل فى كل مكان لتعلن نبأ وفاتها •

ومن ثم فقد اجتمع الرجال والنساء لا لتأبينها ، ولكن ليبتهجوا بموتها ويقيمون وليمة كانيبالية • كان « الرامينجيراريون » هم أول من سقطوا على الجسد وأخذوا يلتهمون لحمه • وما كادوا يفعلون هذا ، حتى أخذا يتحدثون لغة واضحة • أما القبائل الأخرى التى كانت تسكن جهة الشرق ، فقد وصلت متأخرا ، ومن ثم فقد أخذت تلتهم الأمعاء ، ولهذا فقدأخذت تتحدث بلغة تختلف بعض الشىء عن لغة القبيلة الأولى وما لبثت أن وصلت القبائل التى تسكن جهة الشمال فى نهاية الأمر ، فأتت على سائر الأمعاء وما تبقى من الجسد ، فتحدثت بلغة تختلف عن لغة « الرامينجيراريين » • أكثر من اختلاف لغة القبائل الثانية منها •

ويحكى الهنـــود الماندين فى كاليفورنيا أن الناس جميعـــا كانوا يتحدثون لغـــة واحـــدة حتى زمن معـــين • وبينما كان الناس يشعلون النار ، وكان كل شىء معدا لليوم التالى ، أخـــذ كل منهم فى الليل يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان كان كل زوجين كانا يتحدثان بلغة واحدة • وفى تلك الليلة ظهر الاله الذى يسمونه « الأرض الأول » لرجـــل بعينه اسمه « كوكسى » ، وأخبره بما حدث ، وأرشده الى ما ينبغى عمله فى اليوم التالى عنـــدما يبدأ الناس يتحدثون لغـــات مختلفة• ومن ثم فقد جمع « كوكسى » الناس جميعا وتحدث اليهم ، اذ كان يعرف اللغات جميعا ، فعلمهم أسماء الحيوانات المختلفة ، وغيرها من أسماء الأشياء باللغات المتعددة كما علمهم كيف يطهون طعامهم ويقتنصون حيواناتهم ، وشرع له القوانين ، وحدد لهم أوقات الرقص والاحتفالات• ثم سمى كل قبيلة باسمها ووزعم فى جهات الأرض المختلفة بعد أن حدد مكانا لسكنى كل منها • قد سبق أن رأينا أن « التيلينجيين » فى «ألاسكا» يفسرون اختلاف الالسنة من خـــلال حكاية الطوفان التى ربما أخذوها عن المبشرين المسيحيين أو من التجار • وقد حكى « الكويتشيون » فى « جواتيمالا » عن زمن ما فى بداية الحياة ، كان الناس فيه يعيشون معا ويتحدثون لغة واحدة ، ولا يعرفون آنذاك عبادة الحجر أو الخشب، ولا يذكرون سوى كلمة الخالق « قلب السماء والأرض » •وبمرور الزمن

تكاثرت القبائل وتركوا موطنهم الأصلى ووصلوا الى مكان يسمى « تولان » • وهناك فى المكان ، وفقا لرواية « الكويتشيين » تغيرت لغة القبائل ، ونشأت اللغات المختلفة • وعند ذاك لم يعد الناس يفهم بعضهم وتفرقوا فى بقاع الأرض بحثا عن مساكن جديدة لهم •

هذه الحكايات الأخيرة التى تنحو الى تفسير اختلاف الالسنة لا تمت بحكايات برج بابه بسبب • ومن ثم فاننا يمكننا أن نعدها باستثناء الحكاية التيلنجية ، حكايات مستقلة حاول العقل الانسانى عن طريقها أن يتصارع مع المشكلات المعقدة ، مهما يكن مقدار النجاح الذى أحرزه فى سبيل حلها •